المبحث الرابع
المسخرات ونظرية المعاملات في الإسلام

أولا : ضرورة تلاقي السعي بالمسخرات:

يتطلب تطبيق نظرية المعاملات في الإسلام وجود المطبق وهو الإنسان ووجود الإنسان يتطلب وجود مقومات تعينه على الوجود والاستمرار فيه وتجسدت تلك المقومات في المسخرات ولكي يحظى الإنسان بمقومات وجوده عليه أن يسعي لينالها من المسخرات.

وسبق أن أوضحت أن المسخرات تقع في مجموعتين:

الأولى : التي تشمل المسخرات التي لا يمكن تملكها وأتاحها الله للإنسان بالقدر الذي يكفيه في كل زمان ومكان ودون مقابل يسدده الإنسان ، وأهم خصائص هذه المجموعة من المسخرات أنها حتمية لاستمرار الحياة سواء حياة الإنسان أو الحيوان أو النبات ، وأنها متاحة لجميع المخلوقات دون تفرقة بين مؤمن وكافر أو بين غني يملك المال أو فقير يعوزه المال، ودون تفرقة بين صحيح البدن قادر على العمل وبين عليل أو ذي عاهة تقعده عن العمل، وتنتمي مفردات هذه المجموعة من المسخرات إلى عالم الجماد كالشمس والقمر والماء والهواء والرياح والبحار والجبال .....الخ مما لا حصر له من المفردات .

الثانية : وهذه المجموعة هي التي يسر الله تملكها وكما سبق أن أوضحت أن العلة في ذلك تكمن في طبيعة عناصر هذه المجموعة إذ أنها المنوط بها توفير حاجات الإنسان من المأكل والملبس والنقل والانتقال ونظراً لتزايد أعداد الإنسان بجانب زيادة احتياجات الإنسان ذاته من هذه

العناصر فكان أن يسر الله للإنسان تملكها حتى يقوم عليها بالرعاية وتنميتها والعمل على زيادتها .

ونظراً لأن تلك المسخرات مملوكة لإنسان يبذل الجهد للحفاظ عليها وتنميتها فقد تحدد لها مقابل لمن يريد الانتفاع بها وتقع مفردات هذه المجموعة في عالم النبات وعالم الحيوان .

ونظراً لأن المسخرات من المجموعة الأولي تعمل لخدمة الإنسان تلقائياً وتقدم له ما يحتاجه دون عناء منه ودون سعي إلى هذه المسخرات أو التعامل معها فهي تخرج إذن عن دائرة التعامل المباشر للإنسان ، وبالتالي تخرج عن إطار السعي وفقا للتعريف الوارد بنظرية المعاملات في الإسلام.

أما المسخرات من مفردات المجموعة الثانية فهي التي تستوجب سعي الإنسان وتعامله معها حتى يحصل على النتائج التي تعينه على الحياة وتوفير حاجاته منها، وعلى ذلك فإن الوقت الذي التقى فيه السعي بالمسخرات هو ذاته الوقت الذي بدأت فيه حضارة الإنسان على الأرض، فمن تعامل الإنسان مع المسخرات ظهرت له خصائص المسخرات واكتشف وسائل استخدامها وطرق الاستفادة المثلى منها وكيفية الحفاظ عليها وصيانتها وكل ذلك هو منشأ الحضارة الإنسانية.

ونظراً لأهمية التقاء السعي بالمسخرات فسوف أقدم أهم نقاط هذا الالتقاء فيما يلي:

(١) الالتقاء الإيماني

إن أي التقاء بين طرفين أو أكثر بغرض التعاون والتواصل لتحقيق صالح معين يتطلب بالضرورة مفهوماً يتم اللقاء عليه وبغير تحديد لنقطة الالتقاء

يصبح الأمر نوعاً من العشوائية يأتي اللقاء من خلالها – إن أتى – بمحض الصدفة ولا يمكن تكرار نفس الالتقاء إلا بصدفة أخرى ، لذلك فإن تحديد نقطة أو نقاط يتم عليها التلاقي يضع الأساس السليم لتلاقي مفهوم القصد، محدد الوسيلة ، يمكن تكراره ، ويحقق الهدف في النهاية وهذا هو المبتغي .

وأهم ما يمكن الالتقاء عليه هو المعاني أو المعنويات وعلى رأسها يأتي الإيمان بالمطلق أي الإيمان بالله ، ذلك أن الالتقاء على مستهدفات مادية أمر متغير لأن الماديات تتغير قيمتها وأهميتها، كذلك تتبدل الحاجة إليها بتغير المكان والزمان والإنسان ، أما الإلتقاء على معنويات يضفي على الملتقى عليه صفة الثبات فما بالنا إذا كان الملتقى عليه هو الإيمان بالله ، لاشك أننا في هذه الحالة نلتقي على كلية ثابتة ينصرف أثرها على كل ما دونها ، فإذا ما ألتقى طرفان على الإيمان بالله فإن ذلك بالضرورة سوف ينصرف على الإيمان بالرسل ومن ثم على الكتب وعلى ما ورد في هذه الكتب، أي أن الالتقاء على الإيمان يؤدي بنا إلى الالتقاء على منهج متكامل فيه صلاح الإنسان والكون كله، لأنه تشريع من الله عز وجل خالق الإنسان والكون العارف بخصائص من خلق وما خلق ، ثم إن منهجاً من الله يعلو على أي منهج آخر، لكماله وتنزهه عن الهوى والمصلحة والخطأ.

ولقد أشرت في عرضي لعلاقات المسخرات بخالقها أن هذه المسخرات تسبح لله وتسجد له في دوام لا ينقطع وبلغه أو هيئة لا نعلمها ولا نفقهها، ودلنا عليها ربنا سبحانه ، الذي خلقنا وحدد لنا منهجا قوامة عبادته بكيفية علمنا إياها وبتسبيح بلغة حددها لعباده مفهومة المعاني وظاهرة الدلالة .

وحيث إن المسخرات خارج التصور أو الاحتمال بأن يعتريها الفتور أو

الالتفات عن تسبيح الله والسجود له ، ذلك لأنها مصروفة إليها ولا تستطيع أن تفكر في أن تتحول عنها ، فذلك ضمان لأدائها لتكاليف الإيمان بخالقها ، أما الإنسان فقد ابتلي بالاختيار بديلاً عن الجبر فإن قام بأداء تكاليف إيمانه بالله وتنفيذ وسائل تحقيق الغاية التي من أجلها خلق أي عبادة الله [1] فإنه بذلك يكون قد أصاب نقطة التلاقي مع المسخرات بل والكون كله ، وإن تحقق ذلك التلاقي فمن دواعيه وتداعياته تعامل الإنسان مع تلك المسخرات على مقتضي منهج الله، فيمضي في الإصلاح والإعمار والإنماء ويتباعد عن كل ما من شأنه إفساد تلك المسخرات، وبذلك يحصد الجزاء في وفرة عطاء المسخرات والتنعم بطيب الرزق وهناء الحياة. وباستمرار الإنسان في عبادة الله وفقا للمنهج المحدد له ، فإن نقطة التلاقي بينه وبين المسخرات سوف تتعدي الإفادة المادية من المسخرات – التي غالبا ما تنقلب بفعل نزعة الاستحواذ على الأكثر إلى إفساد في حال وطبيعة المسخرات – إلى تحقيق حالة من الإنسجام بين الإنسان والكون من حوله تزيد من شعور الإنسان بالرضا والسعادة المعنوية.

إذن الالتقاء الإيماني بين الإنسان والمسخرات هو البداية الصحيحة لسعي يستهدف إصابة الصالح للإنسان والمسخرات معاً . وقد يتصور البعض أن التلاقي الإيماني هو فلسفة وتزيد أو إطار جميل لعلاقة المسخرات بالإنسان دونما تأثير حقيقي على واقع تلك العلاقة ، ومردود على ذلك بأن استقرار الإيمان في نفس الإنسان والاعتقاد الذي لا يفارقه إنما هو المحرك والدافع لتحقيق أفضل مستوى لعلاقة حتمية وأبدية.

وكما سبق أن عرضت في غير موضع أن الإسلام دأب في كل أركانه

---

(١) آية رقم ٥٦ سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ومنهجه على الإعداد النفسي وترسيخ الاعتقاد في نفس الإنسان قبل بداية أي عمل ويظل الاعتقاد ملازماً للعمل حال القيام به وحتى إتمامه، ويتأكد هذا الإعداد وتبرز أهميته وتأتي ثماره لدي قيام الإنسان بالتعامل مع المسخرات.

(٢) الحفاظ على المسخرات :

إن الحفاظ على المسخرات سواء من حيث حجم توافرها أو الحفاظ على خصائصها والحرص على توفير أنسب الظروف لقيامها بوظائفها في خدمة الإنسان واستمرار وجوده ، ليس فقط قيمة أخلاقية وإنما هو ضرورة واقعية ، ذلك أن عدم الحفاظ على المسخرات سوف يؤدي إلى:

أ- عدم قدرتها على الوفاء بمتطلبات الإنسان في زمان ما.

ب- عدم استمرارها لأجيال قادمة .

وفي كلتا الحالتين سوف يستحيل استمرار وجود الإنسان لإفتقاره لعناصر ومقومات ومتطلبات هذا الوجود .

وقد سبق أن أشرت إلى ذلك في المبحث السابق

(٣) تنمية المسخرات :

إن تنمية المسخرات بديل لاستنفادها ذلك أن الإنسان في سعيه متعاملاً مع المسخرات إنما يتنازعه خاصية حب التملك وحب التمتع أكثر من غيره بما هو متاح له، أي نزوعه إلى الأنانية، وتعمل الخاصيتان في اتجاه واحد هو استنزاف المتاح من المسخرات للحال وللمآل .

وهنا يلعب العنصر الإيماني السابق عرضه دوره الهام في تهذيب سلوك الفرد تجاه المسخرات وتكريس الحفاظ عليها بما يضمن توافرها للإنسان في كل الأزمنة.

ويتعلق بما تقدم اختيار أسلوب التعامل مع المسخرات فعلي الإنسان تجنب أساليب التعامل التي تلحق ضرراً بالمسخرات مثل ما يتبع في بعض المناطق في صيد الأسماك بالمتفجرات التي تقتل من الأسماك والزريعة ما لا يستفاد منه، بالإضافة إلى تقليل المتاح منها للأجيال القادمة ، ومثل قطع أشجار الغابات سعيا وراء أخشابها دونما الأخذ في الاعتبار تأثير ذلك على توفير غاز الأكسجين وتقليل غاز ثاني أكسيد الكربون ومثال نسف الجبال لاستخراج الأحجار دونما اللفت إلى وظائفها كأوتاد للأرض تحافظ عليها أن تميد بالإنسان. الأمثلة كثيرة وعلينا اختيار الوسيلة السليمة في تعاملنا مع المسخرات بحيث تكون محددات هذه الوسيلة هي :

١- الحفاظ على المتوافر من المسخرات .

٢- الحفاظ على نماء تلك المسخرات حتى تتوافر للأجيال القادمة .

٣- الحفاظ على الوظائف التي تقوم بها هذه المسخرات وعدم إخراجها عما سخرت له .

ثانياً: وظيفة المسخرات في تحقيق الغاية من خلق الإنسان:

خلق الله الإنسان لغاية واحدة هي عبادته سبحانه وتعالي ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية لابد من وجود الإنسان إذ لا يتصور عبادة الله بدون وجود الإنسان ، ووجود الإنسان لابد له من وجود المقومات التي تمده باحتياجاته من طعام وماء وهواء وملبس كما لابد له من موجودات تسهل له حياته ، ومن الواضح أن ما يمد الإنسان باحتياجاته هو عالم المسخرات باختلاف مفرداته ، لذلك وعن طريق التسلسل المترابط السابق يكون الارتباط وثيقاً بين وجود المسخرات وبين تحقيق الإنسان للغاية من خلقه .

وتفادياً للتكرار أصل إلى ما ورد بالمبحث الأول الذي عالج أهمية المسخرات ووظائفها ، والتي وضح من خلالها ما تقدمه المسخرات للإنسان لضمان وجوده واستمراره حتى يؤدي الغاية من خلقه متمثلة في عبادة الله ، والعبادة هنا أولا طاعة لله الذي فرضها وإذعان لمشيئته وثانيا فإنها عبادة شكر على ما انعم الله به على الإنسان من معطيات المسخرات .

والعبادة أولا وأخيرا هي تكريم للإنسان فرضها الله عليه ويثيبه عليها إن أقامها، وتمضي العبادة بالإنسان إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وتدفعه إلى استشراف العلى حيث السمو والارتقاء بالبشرية إلى أعتاب النور الإلهي الذي هو ضياء للنفس وصفاء لها فتكون قادرة على استلهام صفات الذات وسط شدو الكون بكل مسخراته بترانيم التسبيح والحمد، ويكتمل للإنسان حينئذ تحقيق الغاية من خلقه فسبحان القائل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ صدق الله العظيم .